مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 1 (مارس) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

التشكيلات الاجتماعية بسجلماسة من التأسيس إلى الخراب: مساهمة رصد جوانب من الديموغرافية التاريخية خلال العصر الوسيط.

Social formations in Sejilmasa from foundation to ruin: a contribution to monitoring aspects of historical demography during the medieval ages.

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: حميد اجميلي- Jmili Hamid صص80-102
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ في التاريخ- كلية العلوم الانسانية والاجتماعية- جامعة ابن طفيل- (المغرب).
القنيطرة/البريد الإلكتروني: hamidjmilihamid@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2020/12/26 تاريخ المراجعة:2021/01/06 تاريخ القبول: 2021/02/09

الملخص: سكنت العناصر البشرية بلاد المغرب منذ أقدم العصور وتوافدت عليه- من جهة الشرق- حركات بشرية اندمجت مع العنصر المحلي. إن تناول مدينة سجلماسة على وجه الخصوص من وجهة نظر الديموغرافية التاريخية التي تحاول رصد العناصر السكانية التي عرفها مجتمع سجلماسة اقتضت القيام بمسح للمصادر وبحث عن النصوص التاريخية القليلة التي ساعدتنا إلى حد ما في تذليل الصعاب والعقبات، ذلك أن قلة الاشارات في المصادر التاريخية جعلتنا نستعين بكتب الرحلات والجغرافيا وغيرها فضلا عن الدراسات التي تناولت بعض القضايا المرتبطة بعناصر سكان المنطقة، وقد تبين من خلال كل ذلك أن منطقة الجنوب الشرقي مثلها مثل باقي المناطق المغربية احتضنت عناصر أمازيغية زناتية وصنهاجية ومصمودية، كما أنها استقبلت هجرات بشرية عربية معقلية، فضلا عن فئة اليهود والعناصر الافريقية السودانية والحراطين، مما خلق فسيفساء اجتماعية اثنية تفاعلت فيما بينها في فترة وجود مدينة سجلماسة و حتى بعد خرابها، حيث ستنتشر هذه العناصر البشرية في القصور، ثم تستمر في أدوارها وإن كانت الزعامة والأهمية والسلطة تنتقل من عنصر سكاني إلى عنصر آخر حسب قوة العصبية القبلية أو ضعفها.

الكلمات المفتاحية: سجلماسة؛ التشكيلات الاجتماعية؛ صنهاجة؛ بني معقل؛ القصور.

Abstract: Human elements have inhabited the countries of the Maghreb since ancient times– coming from the East. Migrant people merged with the locales.

Addressing the city of Sijilmasa, in particular, from the historically demographic perspective, which has dealt with the demographic elements in Sijilmasa community, has required conducting a survey of sources, searching the few historical texts that helped us, to some extent, overcoming difficulties and obstacles. The lack of references in historical sources made us use books of travels, geography and others, as well as studies that dealt with some issues related to the elements of the region's population. Through this, it has been shown that the southeast region, like the rest of the Moroccan regions, has embraced Berber, Zenit, Sanhaj and Samoudian elements, and received reasonable Arab migrations, as well as the class of Jews, African Sudanese and Haratine. This created an ethnic social mosaic that interacted with each other during the existence of the city of Sijilmasa and even after its ruin. These human elements would spread in palaces and then continue in their roles even if the leadership, importance and authority were transferred from one population component to another according to the strength and weakness of tribalism
Keywords: sijilmasa; formation sociales; sanhaja; bani maaekil; Ksours.

مقدمة: سكنت العناصر البشرية بلاد المغرب منذ أقدم العصور وتوافدت عليه- من جهة الشرق- حركات بشرية اندمجت مع العنصر المحلي، وقد أبرز أحد الباحثين[1] أن الدارسين للإنسان المغربي وجدوا عناصر تشابه بينه وبين الإنسان المشرقي، خصوصا بعد تراجع الأبحاث المرتبطة بتاريخ السلالات البشرية[2] التي سعت في البداية إلى ربط الأمازيغ[3] بالأصل الأوروبي، وتقديم أطروحات استعمارية حاولت إبراز الأصل السالتي للبربر، ونفي أي وحدة جنسية لديهم[4]، والتوجه إلى الاعتقاد بنظرية تقول بتنوع العنصر البربري الناتج عن اختلاط إنسان المغرب القديم بشعوب البحر الأبيض المتوسط وخصوصا الموجات البشرية القادمة من الشرق مباشرة، أو عبر الجنوب الشرقي بعد اختلاطها بالعنصر الأسود[5].

ويصطدم الباحث الذي يريد تناول الخريطة الديموغرافية والعناصر الإثنية، في بلاد المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط بعدة عوائق معرفية، تتجلى في ضياع أهم كتب الأنساب وغياب التدوين التاريخي للقبائل وسكان البوادي والرحل. ومع ذلك فقد أكد أحد الدارسين[6] أن بعض المصنفات التراثية، تركت لنا بعض المعلومات عن أصول السكان وأنسابهم، مثل "جمهرة أنساب العرب"، و"المقتبس من كتاب الأنساب" للبيدق، وكتاب "العبر" لابن خلدون.

فقد قدم لنا ابن حوقل لائحة غير نهائية بأسماء القبائل والبطون البربرية، لا يقل عددها عن مائتي اسم[7]، والراجح أن العدد أكبر مما قدم، حيث يذكر ابن حوقل[8] أن عدد

قبائل "البربر" كبير" لا يلحق عددهم، ولا يوقف على آخرهم، لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البراري وتبددهم في الصحاري.

أولا: بعض المقدمات الأولية للتشكيلات الاجتماعية بسجلماسة: إن دراسة التشكيلة الاجتماعية لسجلماسة في الفترة الوسيطية من طرف عدد من الباحثين أظهرت تعددا في الطرح والتناول واختلاف زاوية النظر، فضلا عن تشابك المعطيات وتداخلها بل وغموضها في كثير من الأحيان نظر لغياب المصادر التاريخية التي تدقق في زمن دخول العناصر الإثنية إلى منطقة سجلماسة، كما أن تعدد العناصر الإثنية من أمازيغ وأفارقة وعرب ويهود وشرفاء وحراطين وغيرهم جعل هذه الفسيفساء في صراع دائم حول الزعامة ومن يتحكم في مجريات الأحداث داخل المجال الواحي السجلماسي قبل بناء المدينة وبعدها. وذكر الباحث عبد الله استيتيتو أن ثمة مرحلتين من مراحل توافد العناصر البشرية على منطقة "تافيلالت"، وذكر أن المرحلة الأولى- وهي التي تهمنا- تبتدأ منذ فجر التاريخ، وتنتهي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي؛ إذ عرفت فيها سجلماسة استقرار العناصر السودانية والصنهاجية والزناتية فضلا عن عناصر مشرقية وأندلسية، والمرحلة الثانية وتبدأ من القرن الثامن الهجري إلى نهاية العصور الحديثة حيث عملت القبائل العربية المعقلية والهلالية على دمج الأعراق الأخرى، وصهرها في لحمة واحدة، لكنها لم تنصهر بحكم تغلغل العادات والتقاليد بعد تربع العناصر المرابطية والشرفاء على هرم الطبقات الاجتماعية خاصة في المراحل المتأخرة[9].

لقد طرأت تغيرات على البنية الاثنية السكانية بفضل الهجرات وعملية نزوح الأفارقة والقبائل الأمازيغية الزناتية والصنهاجية والمصمودية، وكذا القبائل العربية من بني هلال وبني معقل فضلا عن تواجد العنصر اليهودي والتي تذكر الروايات أن وجوده تزامن مع الوجود الزناتي في المنطقة خاصة قبائل مكناسة التي ساهمت في بناء مدينة سجلماسة وأصبحت عاصمة لها بعد انشائها لإمارة بني مدرار لأكثر من قرنين من الزمان (140هـ-366هـ).

وقد تعايشت تلك القبائل في سجلماسة وإن اختلفت في فترات استقرارها، برغم الصراع الذي كان يغلف نزوح بعض القبائل خاصة المتغلبة منها، سواء القبائل البربرية الكبرى من زناتيين وصنهاجيين ومصامدة الذين شكلوا دولا مركزية وسيطروا على المدينة.

فصنهاجة كانت من القبائل التي استقرت بها عندما كانت تمر بالمنطقة المعروفة برحلة انتجاع القبائل الصحراوية من الجنوب إلى الشمال، فـ"**أهل سجلماسة أخلاط والغالبون عليها البربر وأكثرهم من صنهاجة**"10. إن تمركز و استقرار القبائل الأمازيغية بالمناطق الصحراوية والواحية يرجع إلى غابر الزمن، حيث لم تتعرض المنطقة للغزو الروماني فحافظت المجالات الموجودة جنوب جبال الأطلس على استقلالها واستمرت القبائل تنتجع في هذه التخوم بعددها الكبير حتى قيام دولة المرابطين منتصف القرن الخامس الهجري، وهنا جاءت إشارة أبو عبيد الله البكري بقوله: إن قبائل مسوفة، وهي قبيلة صنهاجية، كانت قريبة من مجالات سجلماسة (**بنو مسوفة من صنهاجة ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة**)11، وعموما مجالاتها الجنوبية تسكنها قبائل بربرية تتكون من لمتونة وگدالة ومسوفة.

لقد وقع اجماع بين المؤرخين والنسابة وغيرهم على تقسيم "البربر"12 إلى مجموعتين كبيرتين: مجموعة البتر ويطغى عليها طابع البداوة والترحال، ومن هذه المجموعة الكتلة الزناتية. ومجموعة البرانس، ويطغى عليها طابع الاستقرار ومنها الكتلتان الصنهاجية والمصمودية.13 وقد أورد هذا ابن خلدون بقوله: "**وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم، فإن علماء النسب متفقون أنهم يجمعهم جذمان عظيمان، وهما برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالأبتر، فكذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس**"14. أما البتر فقد اشتهروا بحياة البدو والترحال15، هكذا نستنتج أن هذه التصنيفات حاولت تقسيم البربر إلى مجموعتين بشريتين تضم القبائل الثلاثة الكبرى (صنهاجة ومصمودة وزناتة).

ثانيا : قبائل صنهاجة واستقرار بعضهم بسجلماسة بعد قيام الدولة المرابطية: أما فروع وبطون صنهاجة فعددها كبير جدا، وتشير المصادر إلى أن "**هذا القبيل من أوفر قبائل البربر وهم أكثر أهل المغرب لهذا العهد... لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى زعم الناس أنهم الثلث من أمم البربر...**"[16] ، وهي إشارات ديموغرافية مهمة توضح أن سجلماسة بدورها لا تخلو من استقرار بطن من بطونهم فيها، وهذا يبين أيضا أن صنهاجة لها فروع وبطون كثيرة تنتشر في مناطق عديدة من المغرب الأقصى وغيره، كما أن عبارة ثلث سكان البربر لها دلالات سكانية، تعبر عن حجم الكثافة السكانية لقبائل صنهاجة ضمن المكونات الاثنية البشرية الموجودة في المنطقة. وقد ذكر ابن خلدون أن

"**بطون صنهاجة ..كثيرة فمنهم، بلكانة وأنجفة وشرطة ولمتونة ومسوفة وكدالة ومندلسة وبنووارث وبنويتين. ومن بطون أنجفة بنو مزوات وبنو تثليب وفشتالة وملواقة، وهكذا يكاد نقل بعض نسابة البربر في كتبهم وذكر آخرون من مؤرخي البربر أن بطونهم تنتهي إلى سبعين بطنا**"17، وفي مصدر آخر "**تنقسم صنهاجة على سبعين قبيلة، منهم لمتونة، وجدالة، ومسوفة، ولمطة، ومسراتة، وتكلاتة، ومنداسة، وبني وارث، وبني مسفين، وبني دخير، وبني زياد، وبني موسى، وبني لماس، وبني فشتال، وفي كل قبيلة بطون وأفخاذ وقبائل أكثر من أن تحصى**"18، وعبارة قبائل وأفخاذ أكثر من أن تحصى، مؤشر ديموغرافي مهم على ارتفاع عدد سكان القبائل والبطون الصنهاجية، وقوة العصبية وانتشارهم في معظم المناطق، وهي عوامل ساهمت في نظرنا في نجاح قيام الدولة المرابطية. علما أن هذه البطون كما يصف ابن أبي زرع، كلها تتركز في المناطق الصحراوية الجنوبية والجنوب الشرقي الذي يوجد ضمنه مجال تافيلالت تقريبا وتخوم سجلماسة حيث يقول: "**وهذه القبائل كلها صحراوية، حوز بلادهم من القبلة مسيرة سبعة أشهر طولا ومسيرة أربعة أشهر عرضا، من نول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية، وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان**"19، ومن هؤلاء القبائل والبطون من يعيشون حياة بدائية تعتمد على الرعي، فهم "**قوم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا ثمارا، وإنما أموالهم الأغنام، وعيشهم اللحم واللبن..**"20 ، فإنهم نزحوا نحو تخوم المغرب جنوبًا وإلى حدود بلاد السودان، وشكلوا عصبية قبلية كبيرة الأفخاذ والبطون أكثر من أن تحصى. ثم أصبحت رقمًا مهمًا ضمن القبائل البربرية في المغرب الأقصى بعد تمكن الملثمين من توحيد البلاد وتوطين العديد من هذه البطون والأفخاذ في وسط البلاد وشمالها، ومن ثم كانت منطقة تافيلالت من المجالات التي تعيش فيها هاته القبائل، وقد تمكنت قبائل صنهاجة من الدخول إلى المدينة عندما تمكنت الدولة المرابطية من بسط سيطرتها عليها، بل وقد استمر دور هذه القبائل الصنهاجية حتى في عهد الدولة المرينية؛ إذ يظهر استمرار قبيلة مسوفة في الاهتمام بالتجارة وبالطرق التجارية السودانية؛ فعندما كان الرحالة ابن بطوطة مارًا بسجلماسة متوجهًا في رحلته إلى بلاد السودان في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، كان يقود قافلته شخص من قبيلة مسوفة اسمه محمد بن يندكان المسوفي[21].

ثالثا: قبائل مصمودة واستقراهم بسجلماسة بعد قيام الدولة الموحدية: ينتسب المصامدة حسب ابن خلدون إلى مصمود بن برنس22 ، وهم أقوى قبائل البرانس من حيث كثرة العدد مقارنة مع مجموع السكان، وتذكر المصادر أن سكان المغرب الأقصى هم في **"الأغلب ديار المصامدة من البر ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضغرة وأوربة وغيرهم، لكنهم قليل بالنسبة للمصامدة ويساكنهم فيه أيضا عالم من العرب أهل الخيام"**23 . ومن خلال هذا النص نستنتج أن قبائل مصمودة تتميز بكثافة سكانية مرتفعة مقارنة بباقي القبائل الأخرى. ولا ريب أن كثرة بطونهم وتوزعهم في مختلف المناطق المجالية الجبلية والسهلية، قد ساهم في تعزيز تمركزهم وزيادة عصبيتهم وعددهم وقد ساهم قيام دولة الموحدين على أنقاض الدولة المرابطية في زيادة انتشار القبائل المصمودية في مختلف المناطق الحضرية التي كانت تحت السيطرة الصنهاجية ومن بينها حاضرة سجلماسة التجارية والاستراتيجية حيث عرفت استقرار العنصر المصمودي في محاولة للتحكم في بوابة الصحراء ومسالك الطرق التجارية نحو بلاد السودان الغربي.

ومما تقدم يستشف أن مصامدة درن قد شكلوا كتلة بشرية مهمة جدا، ساهمت في تعزيز البنية الديموغرافية في الجبال المغربية، وشكلت معين لا ينضب من العناصر البشرية التي اعتمد عليها الموحدون في إقامة دعوتهم ودولتهم، إلى جانب العناصر المصمودية الأخرى.

رابعا: قبائل زناتة واستقرارهم في سجلماسة وتخومها: حظي الزناتيون بمكانة مهمة ضمن القبائل البربرية، حيث مثلوا العنصر الثاني من سكان المغرب الرحل خلال الفترة المرابطية 24، وتبوؤوا مكان الصدارة السياسية والاجتماعية خلال حكم المرينيين الذين هم فرع من زناتة. وتوضح إحدى المصادر أن **"زناتة من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"** 25، وجاء في المصدر نفسه أن **"بنو مرين فخد من زناتة من أشرافهم، وقد قيل إنهم شرفاء، وقد رفع بعض أهل التاريخ نسبهم الشريف من جدهم الأمير عبد الحق إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ض)"**. لكن أحد الدارسين[27] اعتمد على روايتي "ابن حزم" و"القلقشندي"، بقوله:" **ويرجع النسابة أصلهم إلى كنعان بن حام، وهم فرع من البتر، من أولاد جاناتا بن يحي بن مولاة بن مازيغ"**[26].

لقد كانت قبائل الرحل تتحكم في المجال الشاسع، وتنتقل عبر تاريخها حتى نزل أبو القاسم سمكو بن واسول أرض تافيلالت سنة 138هـ، فعمل على توحيدها بعدما كانت

تسكنها قبائل أمازيغية وزناتية وصنهاجية وهوارية ومن الزنوج السودانيين وأهل الربض الأندلسيين[28]. ويشير المقدسي أن تضاريس المنطقة سمحت لقبائل مكناسة الزناتية بتأسيس قصبة سجلماسة عاصمة لهم[29]، بل الأكثر من هذا فقد أنشأت امارة بني مدرار التي دامت زهاء قرنين من الزمن من 140هـ إلى 366هـ، وقد كانت زعامة مكناسة في بني أبي نزول، ثم صارت بطون مكناسة في مناطق سجلماسة ومحيطها لبني واسول بن مصلان بن أبي نزول. حكمت بعدها قبيلة تنتمي إلى نفس قبائل زناتة وهي مغرواة التي حكمت سجلماسة بدأ من سنة 366هـ إلى غاية دخول المرابطين للمدينة بشكل نهائي سنة 447هـ-1054م[30].

وتؤكد المصادر التاريخية أن الموطن الأول لقبائل بني مرين هو بلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سجلماسة، وينتقلون في تلك البراري والقفار لا يخضعون لأية سلطة لكثرة تحركاتهم، في مجال واسع يمتد من غدامس إلى السوس الأقصى[31]. وبسبب زحف أعراب بني هلال وبني سليم في نهاية القرن الخامس الهجري، تحرك بنو مرين ومن معهم من العناصر البشرية الأخرى في اتجاه المغرب الأوسط وتخوم المغرب الأقصى، حيث أوضح ابن خلدون ذلك بقوله: "**وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم من الزاب، وما إليه من بلاد إفريقية وانتشر بنو واسين، وهؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية وفكيك ثم إلى سجلماسة**"[32]. وهنا يظهر أن هذه الأخيرة كانت ملاذهم في نهاية المطاف، وهذا يظهر الأهمية الكبيرة التي تحتلها منطقة تافيلالت بالنسبة لتلك القبائل المتحركة.

خامسا: الهجرة العربية نحو المغرب الأقصى واستقرارهم بسجلماسة وتخومها من الفتح الإسلامي إلى القرن السابع الهجري: إن تناول العناصر العربية بالمغرب الأقصى خلال هذه الدراسة، يستدعي أولا الرجوع إلى البدايات الأولى لدخول هؤلاء، خاصة في بداية الفتح الإسلامي بعد أن أصبح المغرب ولاية تابعة للخلافة الإسلامية في المشرق. لقد تتابعت هجرات العرب نحو المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط ولم تتوقف، وكان لسجلماسة خصوصا والجنوب الشرقي عموما نصيب من هذه الهجرات، مما جعل أحد الدارسين33 يقسم هذه الهجرة إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ من الفتح الإسلامي إلى القرن الخامس الهجري تقسم بدورها إلى فترتين:

الفترة الأولى: بدأت منذ تحكم المسلمون أيام الفتح في "**بلاد المغرب وعمالاتها، واقتسموه... أمدهم الخلفاء بالبعوث...، وكان فيهم من كل القبائل من العرب**"34 ، ومن بين القبائل التي وفدت على المغرب الأقصى خاصة في شماله بنو هاشم وبنو عدي وبنو أمية وبنو أسد وغيرهم35. وقد "**كان صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن في البعث الأول... فاستخلص نكور لنفسه**"36، بعدما أقطعت له من لدن الوليد بن عبد الملك سنة 91 هـ[37]، فأقتطع صالح أرضها، وهذا يوضح استقرار العرب بالمغرب الأقصى منذ السنوات الأولى للفتح . ولاشك أن الجنود القادمين في الحملات العسكرية هم عرب بالضرورة، شاركوا في جيش عقبة بن نافع وموسى بن نصير، ووصلت حملته إلى بلاد المغرب الاقصى. وهنا لا يستبعد أن تصل عناصر عربية بشكل فردي كالتجار والعلماء من بغداد والكوفة والبصرة وبلاد الحجاز، أو على شكل حركات اجتماعية فرت من بلاد المشرق، لأسباب سياسية أو دينية مثل الخوارج 38.

والفترة الثانية: كان المهاجرون العرب القيروانيون من "القيسية" و"الأزد" و"يحصب" و"مذحج" .. الساخطين على الأغالبة39، قدموا إلى مدينة فاس في عهد إدريس الثاني سنة 189هـ، بلغ عدد بيوتهم ثلاثمائة بيت، بينهم خمسمائة فارس40. كما تخلل هذه الفترة توافد عناصر أخرى غير عربية في فترة حكم إدريس الثاني تقريبا 193هـ، وهي جماعة من الفرس من بلاد العراق فأنزلهم بعين علون ومنهم بنو ملونة41. وأيضا استقبل المغرب الأقصى عددًا من المهاجرين العرب الأندلسيين النازحين من قرطبة في حادثة ثورة الربض المشهورة 42، الذين استوطنوا مدينة فاس بالعدوة وهي تحمل اسمهم (عدوة الأندلسيين)43 سنة 202هـ . قدر عددهم ابن أبي زرع بـ ثمانية آلاف بيت44، وهي أول هجرة مهمة تتحدث عنها المصادر التاريخية45، ولما "**نزلوا عدوة الأندلس وشرعوا في البناء يمينا وشمالا إلى ناحية الكدان ومصمودة وفوارة وحارة البادية والكنيف إلى الرميلة، فسميت عدوة الأندلس**"46. ولاشك أن تنتقل بعض العناصر العربية الأندلسية للاستقرار بسجلماسة بحكم موقعها التجاري والحضاري فضلا عن عناصر عربية بشكل فردي كتجار وعلماء من بغداد والكوفة والبصرة وبلاد الحجاز 47. وقد استقبل المغرب في هذه الفترة

أيضا عددا من الصناع والحرفيين الأندلسيين، فقد طلب موسى بن أبي العافية من الناصر لدين لله الأموي أن يرسل له عددا من الصناع لبناء قلعة فقبل ذلك، "... **وأخرج إليه محمد بن الوليد بن فشتيق رئيس المهندسين لديه، مع ثلاثين بناء وعشرة من النجارين، وخمسة عشر من الحفارين، وستة من الجيارين... وستة من الأشارين لأشر الخشب، ورجلين من الحدادين، ورجلين من الحصادين تخيروا من حداق طبقاتهم..**"48.

ومدينة فاس لم تزل منذ أسست مأوى للغرباء، من دخلها استوطنها وصلح حاله بها، وفي القرن الرابع الهجري تدفقت العناصر العربية المشرقية على المدن المغربية كسجلماسة التي استقر بها تجار البصرة، وقد نزل كثير من العلماء والفقهاء والصلحاء والشعراء والأطباء وغيرهم بالمغرب الأقصى إلى غاية 726هـ 49 .

المرحلة الثانية للهجرة العربية: انطلقت مع قيام المرابطين وتضافرت عدة عوامل لتجعل من المغرب الأقصى منطقة جدب للعديد من العناصر العربية الأندلسية خاصة بعد شيوع الأمن والاستقرار في المغرب، فضلا عن حرص المرابطين على جلب الصناع والمهرة والحرفيين لحاجتهم إليهم 50، خاصة في ميادين الدباغة والجلود وقصب السكر وصناعة الخزف وقطاع البناء والمعمار، فيوسف بن تاشفين جلب الصناع من قرطبة إلى مدينة فاس للزيادة في مسجدها وسقاياتها وحماماتها وخاناتها 51. كما جلب علي بن يوسف من الأندلس العمال لبناء قنطرة تانسيفت52. وتشير المصادر خاصة كتاب "بيوتات فاس الكبرى"53، إلى العديد من البيوتات العربية التي استقرت بفاس، فضلا عن استقرار بيوتات عربية أندلسية أخرى بمدن مكناسة وسبتة كبيت بني الصقر 54. وتوافدت عناصر كثيرة من العرب نحو مدينة سجلماسة التي كان تمثل محورا تجاريا منذ نشأتها.

المرحلة الثالثة: تميزت بدخول قبائل بني معقل القادمة من إفريقية والمغرب الأوسط، متجهة نحو الجنوب الشرقي إلى سجلماسة ونواحيها ومتوغلة إلى منطقة سوس ودرعة في نهاية حكم الموحدين، ثم بعد ذلك إلى الغرب والجنوب من بلاد المغرب الأقصى في نهاية القرن 7هـ 55. فقد أكد ابن خلدون أن منطقة سجلماسة عرفت استقرار عناصر عربية وهي قبائل معقلية "... **نزلوا بآخر موطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت وجاوروا زناتة في القفار، واثبتوا في صحاري المغرب فعمروا رماله وتغلبوا فيافيه**"56، ويذكر أحد الدارسين أن هذه القبائل العربية استقرت بين هضاب ملوية ونجود تافيلالت في القرن

السابع الهجري57، وفي القرن الثامن الهجري ستكون قبائل بني معقل من أوفر القبائل وأكثرها قوة خصوصا عندما تمكنت من السيطرة على الواحات المنتشرة من تافيلالت شرقا إلى السوس غربا58، وأشار ابن خلدون إلى أن القبائل العربية المعقلية استغلت تحكم زناتة في الحكم بالمغرب ودخولها المدن والامصار، فسيطرت على البيداء واستوطنوا قصور الصحراء التي بنتها زناتة بالقفر59. "وقد تكاثر المعقل بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم، فإن فيهم من فزارة من أشجع أحياء كثيرة وفيهم الشظة من كرفة والمهاية من عياض، والشعراء من حصين والصباح من الأخضر ومن بني سليم وغيره"60. واستغلت قبائل بني معقل تدهور أوضاع الدولة المرينية في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، فاجتمعت بسجلماسة بطون بني منصور فقامت بخلع بيعتها من أبي فارس عبد العزيز المريني، وبايعوا أبي حمو سلطان الزيانيين بتلمسان61، ومن ثم فصراع الأحلاف وأولاد احسين فيما بينهم كان من بين الأسباب في خراب سجلماسة منذ سنة 761هـ، وقد عملت أحداث أخرى سابقة ساهمت في تدهور وضعية المدينة، منها الحصار الذي ضرب عليها من طرف المرينيين سنة 660هـ وفي سنة 669هـ و673هـ[62]. ويمكن القول إن الصراع بين الأحلاف وأولاد احسين كان يؤثر في التحالفات خاصة عندما حظي أولاد احسين بالمكانة من طرف السلطان المريني أبي العباس أحمد، وقد دفعت هذه العلاقة عرب الأحلاف إلى خلق النزاعات فدمرت أكبر قطعة من المدينة وأحرقت63، وقد ثار عرب الأحلاف ضد الوالي فقتلوه سنة 796هـ بل وهدموا سور المدينة64.

وعموما يمكن القول أن الاضطراب السياسي والصراع القبلي ورفض الحكم القائم كان وراء تراجع دور المدينة، ذلك أن ضعف الدولة المرينية كان ايذانا ببداية خرابها وأضحى المجال مفتوحا للتحكم فيه من طرف القبائل المعقلية والهلالية. وستنضاف إلى ذلك عوامل أخرى بيئية وطبيعية عجلت باندراس سجلماسة.

أما القرنين التاسع والعاشر الهجريين فكانا كارثيين على منطقة تافيلالت بعد خراب سجلماسة، حيث تعرضت للجوائح والقحوط والأوبئة التي اجتاحت المغرب برمته، شملت العمران والإنسان وانتشار الفوضى . وبحكم صعوبة هذه الاحداث فقد أخذت لها اسما من جنسها، مثل "**وباء عزونة**"، و"**عام البقول**" و"**عام كحيكحة**" فضلا عن" **وباء 890**" هـ، و"**فيضان 1046-1049هـ**"، والذي دمر المنازل والحصون وقتل عددا من الناس، وفي سنة

1070هـ تعرضت البلاد للطاعون الجارف الذي سيفتك بعدد من القتلى، وبعد سنة تقريبا ستتعرض المنطقة لمجاعة تسببت في غلاء الأسعار 65.

هكذا يمكن القول إن الحركات البشرية العربية قد تطورت نحو المغرب الأقصى بشكل كبير في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي (580- 595هـ)، وتوطين هذا الأمير لعرب بني هلال بالمغرب الأقصى ساعدت إلى حد ما في إماطة اللثام عن فراغات كثيرة تكتنف التحركات البشرية الكبرى نحو المغرب. ذلك أن توفر معلومات حول هذه الهجرة سنستفيد منها كثيرا في استجلاء العناصر العربية التي وفدت على المغرب خلال فترة مهمة من تاريخه، إذ سيكون لهؤلاء الأعراب أدوار أساسية فيما سيؤول إليه الوضع السياسي بعد ضعف الدولة الموحدية وحتى بعد قيام الدولة المرينية وضعفها. وغالبا ما ستسقر عناصر منها في منطقة الجنوب الشرقي خاصة منطقة تافيلالت كما أنها ستنفرد بالمجال بعد خراب المدينة وسقوط الدولة المرينية.

سادسا: الشرفاء ومكانتكم الاجتماعية في سجلماسة بعد تحالفهم مع قبائل بني معقل:

سبق وأشرنا إلى توافد أعداد كبيرة بني هلال وبني سليم وبني معقل، واستقرارها بالمناطق السهلية ومن بينها واحة تافيلالت ابتداء من القرن الخامس الهجري وقدم الشرفاء الحسنيين66، فاستقروا بالمدينة وأرباضها، وكانوا يحظون بمكانة متميزة نظرًا لنسبهم الشريف القادم من بلاد الحجاز وما تحمله من رمزية روحية ودينية وعلمية، فضلا عما عاينوه من التوقير والاحترام، أما بني معقل فقد تميزت مكانتهم بالكثرة والعصبية، ومن ثم أضحت القبيلة رقمًا صعبًا خلال منتصف القرن السابع والثامن الهجريين في عهد الدولة المرينية.، وتمكنوا من بسط سيطرتهم على كل الواحات في بلاد المغرب بما فيها واحة تافيلالت فتوزعوا في ثلاثة بطون، وهي: ذوي عبيد الله، وذوي حسان، وذوي منصور، في حين الشرفاء الحسنيون لهم سلطة دينية أضحت تتبلور مع مرور الزمن فكانوا محط تقدير من طرف الحكام والسكان أيضا؛ ذلك أن الشرفاء والمرابطون هم سلالات شريفة النسب، لها حرمة خاصة تقوم بدور التحكيم في النزاعات الاجتماعية"67. ورغم أن هذا النص يتناول الفترة الحديثة فإنه ينسحب على الفترة الوسيطية كذلك وهو امتداد لنفس الأدوار التي كانت تقوم بها هذه العناصر الشريفة.

وقد ورد نص مهم لأبي العباس الفضيلي في دراسة للباحث لحسن تاوشيخت حول أهمية الشرفاء الحسنيين جاء فيه "أجداد شرفاء بلدنا سجلماسة الذين نزلوها أوائل الدولة المرينية، قال الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر وذلك سنة أربعة وستين وستمائة، قلت وهذا التاريخ أخذ من الشجرة الحسنية التي أتى بها السيد أبو إبراهيم من ينبع، وقيل من دولة عبد الواحد الموحدي المخلوع على ما قاله أبو العباس أحمد بن يوسف السجلماسي، فيكون ذلك في العشرة الثالثة بعد ستمائة، والصحيح الأول، وعليه فيكون ذلك في دولة يعقوب المنصور المريني"68. والشرفاء الحسنيين هم كل من نزل من سلالة الحسن بن القاسم المعروف بالشريف الحسني الذي قدم إلى المدينة رفقة ابراهيم العمري منطلقا من ينبع من بلاد الحجاز69. فالشرفاء العلويون لم يبرزوا على المشهد السجلماسي إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، لما قدم إلى المدينة الحسن الداخل جد الأسرة العلوية سنة 664هـ-1265م، حيث اتخذها مستقرا له وتزوج فيها وخلف فيها الأولاد الذين تناسلوا. فضلا عن ظهور شخصية المولى علي الشريف بها. وهو الذي لعب دورًا محوريًا في نشر العلم وإنشاء الزوايا والجهاد في بلاد الأندلس فضلا عن أداءه مناسك الحج حيث كان يزاوج بين الجهاد والحج. وفي رسالة أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الأندلسي الغرناطي سنة 841هـ حاول فيها المرسل من خلال المقدمة المدحية إبراز قدر ومكانة المولى علي الشريف بقوله: **"إلى الضرغام الهمام وقطب دائرة فرسان الإسلام الشجاع المقدام الهصور الفاتك.. طليعة جيش الجهاد..مولانا أبي الحسن مولاي علي الشريف.."**.

وعموما فقد تمكن الشرفاء من لعب دور كبير في الصلح بين الناس، كما استفادوا من جملة امتيازات واعطيات من طرف الأسرة المرينية الحاكمة، نظرا للمكانة التي منحت لهم، في محاولة لتثبيت الشرعية من خلال الاهتمام بالأشراف وإكرامهم والتقرب منهم.

سابعا: العنصر السوداني بمنطقة سجلماسة خلال العصر الوسيط: العناصر البشرية السودانية بالمغرب قديمة قدم التاريخ نظرا للعلاقات و الصلات العريقة التي تربط بلاد السودان الغربي أو افريقيا جنوب الصحراء وبين بلاد المغرب الأقصى، وتؤكد الروايات الاخبارية أن استقرارهم بالمغرب الأقصى كان قبل تأسيس مدينة فاس- ففي عهد الأدارسة وجد رجل أسود يقطع الطريق فأمر إدريس الثاني بالقبض عليه-70، بل وقبل تأسيس

مدينة سجلماسة التي شيدت قبل فاس. فالعلاقات كانت قديمة تجاوزت مرحلة الفتح الإسلامي، ومن بين الأسباب المساعدة على هجرة أهل السودان نحو المغرب الأقصى التجارة العابرة للصحراء الإفريقية التي كانت من أهم الروافد التي تمد المغرب والأندلس بالبضائع و بالرقيق71. وتم جلب العبيد من قبل رواد التجارة الصحراوية بأعداد هائلة لبيعهم في المغرب، وهذا يعني أن مركز سجلماسة التجاري ومنطلق القوافل التجارية نحو افريقيا، سيكون من بين المستفيدين من قدوم هاته الأعداد من العبيد والاستقرار فيه قبل بيعهم للأسر أو تصديرهم نحو مدن أخرى داخل المغرب أو خارجه.

بل تذكر بعض الدراسات أن الإفرقيين ساهموا بدور كبير نظرا لكثرة عددهم أثناء (في) بناء المدينة في تعيين أحد أفرادها، وهو عيسى بن يزيد الأسود كأول حاكم للمدينة سنة 140هـ، ولا غرو فقد اعتنقوا المذهب الصفري حيث أبرز الباحث محمود إسماعيل ذلك بقوله: "وامتدت تعاليم الصفرية كذلك عن طريق أبي القاسم سمكو بن واسول إلى جماعات السودان القاطنين جنوبي الصحراء، كانت تمر عبر واحة تافيلالت حيث أقام أبو القاسم وأخذ يعمل على نشر المذهب الصفري، وكانت جماعات منهم تقطن هذه الواحة وتعمل في التجارة عبر الصحراء، وقد اعجب هؤلاء بمبادئ الخوارج لما تنطوي عليه من مساواة دون اعتبار للعنصر أو اللون، ووجد أبو القاسم سمكو فيهم أتباعا مخلصين فالتقوا حوله واعتنقوا مذهبه، وأخذت جموعهم تفد وتستقر في إقليم تافيلالت بصفة دائمة بعد اعتناقهم المذهب الصفري، وليس أدل على ذلك أنه ما أن شرع الصفرية في إقامة دولتهم بسجلماسة سنة 140هـ-757م حتى اختاروا أول أئمتهم من السودان، وهو عيسى بن يزيد الأسود"72 .

فمن خلال هذا النص التاريخي نستشف الدور البارز للعناصر السودانية والمكانة التي بلغوها بعد اعتناقهم المذهب وأصبحت لهم نفس القيمة والمكانة الاجتماعية، بل أصبحوا حكاما للمدينة مباشرة بعد بناءها. ويشير الاطلرخي أن السودانيين يوجدون بشكل كبير في المناطق الصحراوية، وقد عمل على تصنيف السكان اعتمادا على لون البشرة التي تتحكم فيها في الغالب الظروف الطبيعية والبيئية بقوله: **"وأرض المغرب ما كان منها في شرقي بحر الروم بقرب الساحل فتعلوه سمرة وكلما تباعدوا فيما يلي الجنوب والشرق، وازدادوا سودا حتى ينتهوا إلى بلد السودان فيكون الناس بها أشد الأمم سودا"**73، كما أن شدة

الحر وتأثير الشمس جعل لون سكان الصحراء أسودا[74]، وكلمة السود تدل على العناصر المجلوبة من بلاد السودان إلى المغرب.

هكذا استمرت المدينة في استقطاب أعدادًا منهم وإن كانت الظروف ستتغير في الفترة المرابطية والموحدية حيث سيتم توظيف العناصر السودانية في الجيوش وفي العمل بالقصور الأميرية وبيوت الأعيان حيث كانوا يباعون.

وعبر الشريف الإدريسي عن هذه العملية عندما شاهد كثرة أعداد السودانيين بالمغرب الأقصى حين تحدث عن أهالي أرض زغاوة والسودان، وصرّح بأن "**أهل المدن الذين يجاورونهم كانوا يستغلون رحلتهم وغيابهم في صحاريهم فيختطفون أبناءهم... ثم يبيعونهم إلى التجار المتوجهين إلى المغرب الأقصى، ويباع منهم في كل سنة أمم وأعداد لا تحصى**"75، وهو مؤشر ديموغرافي مهم يوضح حجم عدد العناصر السودانية التي تجلب للمغرب الأقصى من أجل بيعها. حيث سيكون لمدينة سجلماسة نصيبها منهم، وإن كانت المصادر في الغالب لا تفصح عن المدن وإنما تتكلم بشيء من التعميم، فإن توفر إشارات تعبر عن وجود العناصر السودانية الافريقية فيها لا يرقى إليها الشك، ورغم غياب نصوص احصائية مباشرة تتحدث عن العناصر السودانية في هذه الحاضرة، فثمة نص تاريخي يتحدث عن واقعة حدثت في مدينة أغمات، وهي المدينة التي تتمتع تقريبا بنفس خصائص سجلماسة لكونها منطقة يتجهز بها نحو بلاد افريقيا، إذ تتكلم المصادر عن مقتل ثلاثة آلاف (3000) سوداني في هذه المدينة في معركة البحيرة(541هـ) في خضم الصراع المرابطي الموحدي، حيث قتل "**جميع أهل أغمات حتى التجار..فكانت الهزيمة وأخذت جميع المحلات، وقتل من أهل أغمات مقتلة عظيمة، ومات فيها من جناوة ثلاثة آلاف أسود**"[76]، وهي معطيات رقمية وانطباعية ديموغرافية مهمة، تفصح عن حجم الخسارة البشرية التي تكبدها "الجناويون" من أهل السودان الغربي إلى جانب أهل أغمات من طرف الجيش الموحدي، ومهما يكن فإن عدد ثلاثة آلاف سوداني يوضح أن عددهم في المدن الكبرى في المغرب الأقصى سيكون مرتفعًا، خصوصا في سجلماسة بوابة الصحراء وفي فاس وهي المركز التجاري النشيط الذي يستقبل بضائع تجارة الصحراء عبر طريق سجلماسة وغيرها.

ولا شك أن تزايد الطلب على العبيد السودانيين جاء لتحقيق رغبة الدولة في دمجهم داخل الجيش. ورغبة الأسر الثرية والحاكمة في تشغيلهم داخل بيوتهم، وقد انخرط العنصر الجناوي في الحياة العامة، وأضحى يقوم بأدوار منزلية وحربية إلى غير ذلك، إلا أن قتل هذا العدد الكبير من العناصر السودانية قد أضعف وجودهم لا محالة بأغمات. ومع ذلك فوجودهم في مدينتي سجلماسة وفاس وغيرهما، لم يضعف بحكم استمرار القوة التجارية واستمرار دور الوساطة الذي كان يقوم به التجار نحو افريقيا جنوب الصحراء، من أجل جلب العبيد والذهب. وثمة وقائع وهي عبارة عن نوازل تعبر عن ظاهرة بيع العبيد وسوء معاملتهم في القرن الثامن الهجري، وهي فترة تراجع أدوار المدينة على المستوى الاستراتيجي خصوصا بعد ضعف الدولة المرينية.

ثامنا: فئة الحراطين من بين أقدم العناصر البشرية المستقرة في واحة سجلماسة: لن نحاول الغوص كثيرا في مصطلح الحراطين، وإنما سنعتمد على بعض الدراسات التي اعتبرتهم فئة ملونة تميل بشرتها إلى السواد، وأصلها غير محدد. هل هم من الإثنيات البشرية الافريقية القديمة من الجيتول؟ أو النوميديين؟ أو الأثيوبيين؟ حيث اختلفت الاجتهادات هل هي عناصر محلية أم عناصر أجنبية قدموا من بلاد السودان الغربي في لحظات متقدمة من التاريخ؟ وهي أسئلة تظل دون جواب . وقد ذكر الدارس نفسه نصا مهمًا جاء فيه "**إن الحاشية الشمالية من الصحراء، كانت حتى القرون الأولى للميلاد تمثل الحد الفاصل بين السكان ذوي البشرة البيضاء، وبين الأثيوبيين الذين يرجع إليهم الفضل في تأسيس الواحات وتوسيع حقولها على طول الأودية التي تجري بالمناطق الشبة الصحراوية بفعل تعاطيهم لغراسة النخيل واستغلال المياة**"[77]. وكما جاء عند الناصري حول لفظ الحرطاني بقوله: "واعلم أنه قد وقع في هذه الأخبار لفظ الحرطاني، ومعناه في عرف أهل المغرب العتيق وأصله الحر الثاني كأن الحر الأصلي حر أول وهذا العتيق حرثان ثم كثر استعماله على الألسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيف"[78].

وقد اتجهت بعض الدراسات حول واحة تافيلالت إلى كون الحراطين ليس هم العنصر السوداني، ذلك أن الواحات كانت تتوفر على عناصر بشرية كثيرة منهم حتى قبل بناء مدينة سجلماسة79، والدارس ماك كوك عندما يتناول سكان السود اصحاب البشرة السمراء في فترة حكم عيسى بن يزيد الأسود السجلماسي، يطرح السؤال التالي: ما هو أصل

الحراطين؟ وحسب تعبيره فبعض الكتاب يعتبرون أن الحراطين مولدون منحدرون من العبيد السودانيين الذين جلبهم البربر، وهناك آخرون يعتبرونهم من سكان الصحراء السود الأقدمين، وثمة كتاب آخرون لم يجزموا بأي رأي في الموضوع، لكنه يميل إلى رأي كابوت بريك Cabot Briggs، الذي يرى أن الجماعة التي ينتمي إليها الحاكم ليس من أعقاب العبيد الذين أتى بهم البرابرة، بل إنها كانت موجودة في تلك الفترة وعلى هذا الأساس يمكن أن ينسب عيسى إلى الجماعة التي تعرف الآن باسم الحراطين بالرغم من أن هذا الاسم لم يطلق عليها إلا حديثا"80.

وقد مارس الحراطين مختلف الانشطة الاقتصادية في منطقة تافيلالت نظرا لكثرتهم وتمكنهم من بعض الأنشطة في الواحة كالزراعة، والاهتمام بتقنيات السقي وتلقيح النخيل وغيرها . وهذا ما جعل أحد الدارسين يؤكد أنهم شكلوا القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الاقتصاد الواحي81. فإذا كان اليهود قد برعوا في التجارة ومهنة البناء وسك العملة فإن الحراطين قد برعوا في تقنيات الفلاحة الواحية.

والحراطين مشهورين بأسماء أخرى بسجلماسة كاسم قبالة ومفردها قبلي، وهي تسمية مستعملة في الأمازيغية بهذه المناطق بصيغة إقبلين ومفردها أقبلي والمقصود بها أهل القبلة. أي سكان بلاد القبلة وتدل أيضا على السود الذين ليسوا عبيدا أصلا. وقد خصص الباحث عبد الله استيتيتو حيزا مهما للحديث عن فئة الحراطين منذ فترة ظهورهم، حيث ألتزم بالنصوص في الفترات التاريخية المرتبطة بظهورهم على مسرح الأحداث وأدوارهم المهمة التي قاموا بها داخل المجتمع الواحي حيث كانوا يمثلون القاعدة العريضة من السكان، لكن بتغير المعطيات الاثنية وتحكم القبائل الأمازيغية خاصة الزناتيين ودخول العناصر العربية المعقلية والشرفاء فقد بدأت تظهر علامات التهميش والاقصاء لهذه الشريحة، بل ثمة من جعلهم في أدنى السلم. وحتى إن سلمنا بمسألة التفاوت الطبقي بين فئات المجتمع في الفترة المعاصرة فإن ثمة تبدلات وتغيرات حدث على مستوى بنية المجتمع بدأت تغير تدريجيا تلك النظرة النمطية السائدة82.

تاسعا : اليهود بسجلماسة وأدوارهم التجارية خلال العصر الوسيط: المرحلة التاريخية التي وفد فيها اليهود إلى بلاد المغرب غير معروفة ولا ندرك المناطق التي انطلقوا منها وإن اختلفت اجتهادات الباحثين، وقد ساهموا في تعمير الواحات بما فيها وادي نون ودرعة

وسجلماسة وتوات، وأسسوا مراكز تجارية مهمة رفقة البربر في القرون العشرة الأولى الميلادية[83]. وتثبت المصادر أن اليهود كانوا متواجدين في بلاد المغرب الاقصى في حواضره وقراه وكانوا ضمن النسيج الاجتماعي المشكل للمجتمع المغربي قبل الفتح الإسلامي[84]، وبعده واستمر تأثيرهم في كل الدول الوسيطية التي تعاقبت على حكم المغرب سواء خلال العصر المرابطي حيث كانوا مستقرين بعدد من المدن المغربية، أو في الفترة الموحدية حيث استمر تمركزهم القوي بعدد من المدن[85]، كمدينة فاس التي كان يهودها من كبار أغنياء المدينة[86]، وظلت من أكثر بلاد المغرب يهودا كما كانت قبل هذا العصر[87]، بل واستمرت لفترات زمنية[88]. ومن المدن المغربية التي استقر بها اليهود خلال العصر المرابطي والموحدي سبتة[89]، ومكناسة وبادس[90]، وأزمور وأغمات وريكة[91]، وأغمات ايلان بها يسكن يهود تلك البلاد. ولا ننسى وجودهم بمدينة سجلماسة خاصة وهم الذين اشتهروا بالتجارة الصحراوية، واغتنى كثير من التجار اليهود بها[92]. فضلا عن ذلك فقد سكنوا المناطق البدوية وبلاد درعة التي كانت بها سلسلة من التجمعات اليهودية المهمة والقديمة، وكان" **أكثر تجارها اليهود**"[93]، إلى جانب منطقة تافيلالت بحكم الامتداد الجغرافي والتواصل الاجتماعي بين درعة وسجلماسة. ومن ثمة فأهميتهم الاقتصادية كانت بارزة في العصر الموحدي تؤكد ذلك المصادر التاريخية. فقد ذكر صاحب الاستبصار (أواخر ق 6هـ)، عند حديثه عن يهود سجلماسة الذين دخلوا مدينة فاس بقوله، وفي فترة قوة الدولة الموحدية عرفت المدينة أيضا قوة تجارية هائلة، حتى أن التجار اليهود أصبحت لهم حظوة كبيرة في ذلك الوقت يقول صاحب الاستبصار[94]: "... **أما الآن فهم تجار أهل البلاد كلها وأغنياءها خاصة بمدينة فاس، فإني عاينت منهم من يقال إن عنده المال الممدود رجالا كثيرين، وقد تنبه لهم الأمر العالي سنة 582هـ. إذ تم تسخيرهم من طرف سكان أهل سجلماسة**"، "**وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم، وهو العز الذي كانوا يرتقبونه في سالف الأزمان**"95. وما يبرز مكانة اليهود في العصر الموحدي لباسهم المميز الذي كان يدخلهم في علية القوم96. ومن ثمة فإن حضور العنصر اليهودي واستقراره بهذه المدينة يوضح فكرة جوهرية تتمثل في قدرة المدينة على استقطاب مختلف العناصر البشرية، سواء كانت بربرية أو سودانية أو مشرقية عربية، أو من أهل الذمة.

كما أن البعض منهم كانوا يمارسون التجارة ولهم متاجر، وآخرون لهم مساكن بالحواضر، لكن يفضلون الإقامة بالبادية، مما دفع البعض إلى استفتاء سيدي قاسم العقباني هل تؤخذ منهم الجزية؟ وما نستشفه من النازلة أن اليهود كانت لهم أوضاع اجتماعية جيدة، كما أن لهم الممتلكات في الحواضر والبوادي المغربية خلال حكم بني مرين، فضلا عن ممارسة التجارة ووظائف إدارية ووزارية. وقد وردت عند الحسن الوزان بعض المعطيات عن وضعية اليهود في بعض المدن المغربية، فرغم أن هذا المصدر متأخر تاريخيا، إلا أن وضعية اليهود ومكانتهم ظلت حاضرة، إذ وصفهم في عدة مدن بقوله: **"وفي مدينة تدنيست مائة منزل لليهود لا يؤدون الجزية لكنهم يقدمون عادة هدايا للأعيان الذين يحمونهم، ومعظم السكان من اليهود وهم الذين يملكون دار السكة ويضربون لسكان المدينة نقود الفضة"**[97]، ويقول أيضا: "**سكان نفزة كثيرون أثرياء وفيها نحو مائتي دار لليهود كلهم تجار أو صناع...**"[98]، ويصف كذلك مدينة أسفي أنه منذ القدم كان بها "**نحو مائة دار لليهود...**"[99]، كما يقطن في تبيوت وهي مدينة في سوس "**عدد كثير من الصناع اليهود، وهم لا يؤدون أية جزية وإنما يقدمون بعض الهدايا الصغيرة للأعيان**"[100].

ورغم ذلك فثمة أرقام قدمها حاييم الزعفراني[101] عن عدد اليهود المهجرين من الأندلس في نهاية ق 9 هـ بعد سقوط غرناطة، وإن كان الباحث نفسه قد اعترف بتضارب الروايات بشأن الأرقام، إلا أنه يمكن الاستفادة منها رغم بعدها الزمني ذلك أن اعتماد الزمن الطويل في دراسة الظواهر الاجتماعية له جدواه في ظل غياب الإشارات الإحصائية المعاصرة لفترة البحث. فبالرغم من قوله: "ويحيط هذه الأقوال كثير من اللبس، فتتردد بين القلة القليلة والكثرة المبالغ فيها.."، فإنه فضل أن يذكر بعض التقديرات مع تحفظه، عندما قال :" وهكذا قيل بأنه من وصل حوالي أربعين ألفا إلى موانئ أصيلا وبادس، وإلى غيرها من المدن الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، توجه حوالي عشرون ألفا من بينهم إلى فاس والمدن الداخلية"[102]، فضلا عن عدد المهجرين الذين انطلقوا من الموانئ الأندلسية ولا يعرف المكان الذي اتجهوا إليه فضلا عن مخاطر الطريق[103].

لقد أثبت اليهود جدارتهم في كثير من المهن داخل مدينة سجلماسة، مثل صك العملة واستخراج المعادن، فقد وصفهم صاحب الاستبصار بالأغنياء. وقد اشتهر اليهود بصناعة

الذهب وضرب النقود وسبك الحلي104 فضلا عن العمل في ميدان البناء . وذكر البكري أنهم كانوا مختصين في الحرف الرذيلة بالمدينة وقال: "والبناؤون عندهم يهود لا يتجاوزون بهم هذه الصناعة"105، بل لم يتورعوا عن ممارسة مهنة الكنافة وأصبحت ملتصقة بهم وتميزهم عن غيرهم حتى أنه من دخل في الكنافين من أصناف الناس سموهم المجرمين لإجرامهم على حرفة مرموقة على اليهود، وإذا كانت نظرة الاحتقار تصاحب اليهود في ممارستهم للكنافة، والبناء، سواء داخل المجتمع أو حتى على مستوى الكتابة العربية فقد ذكر أحد الباحثين وجهة نظر الكتابات الغربية التي نظرت عكس الأولى تماما، إذ اعتبرت ممارسة هذه المهنة من طرف اليهود والتفنن فيها واتقانها محط إشادة وتقدير، لأنهم بذلك أثبتوا شخصيتهم وأدوارهم الاجتماعية داخل المجتمع السجلماسي، لأنه لا يمكن الاستغناء عن مهنة الكنافة أو البناء، وهذا بطبيعة الحال أهلهم لاحتلال مكانة مهمة في الهرم الاجتماعي للمجتمع الواحي[106]. ونظرا للدور الاقتصادي الذي أصبحت تضطلع به فئة اليهود في المدن المغربية ومن بينها سجلماسة فقد لعبوا دورا هاما في ربط هذه الأخيرة بأوروبا اعتمادا على علاقتهم بيهود تلمسان ومايورگا وبرشلونة والأركون، الذين رخصوا لليهود حرية المتاجرة في بلاد أروبا، ونقل البضائع نحو هاته المملكة، لأنهم ساهموا في انتعاش التجارة خلال نهاية القرن السابع الهجري كما ذهب إلى ذلك الباحث ديفورك. ورغم سقوط وخراب سجلماسة فحسب الحسن الوزان فقد استمر النشاط التجاري والحرفي في بعض القصور الفيلالية مثل قصر تابوعصامت، وقصر المامون الذي كان زمن هذا المؤلف كبير حصين كثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود[107]، والقصر الفوقاني والقصبة السجلماسية وغيرها من القصور، حيث كان اليهود من أبرز التجار وأغناهم مالا[108].

لقد تراجعت المدينة وتعرضت للتخريب بعد أن اعتمدت الدول الوسيطية عليها بشكل كبير في تأمين طريق تجارتها، بل ثمة إشارة في مرحلة قوة الدولة المرينية، توضح حجم الضرائب التي كانت تقدمها سجلماسة ودرعة لخزينة الدولة والتي بلغت حوالي مائة وخمسين ألف مثقال[109]، وهي تأتي في نفس المرتبة مع مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين، وفاس عاصمة المرينيين، واللتان كانتا تضمان عددا كبيرا من السكان، وهذا ما جعلنا نتساءل عن سبب تراجع دور المدينة وانخفاض عدد سكانها[110]، وخرابها في نهاية المطاف وانتشار سكانها في القصور.

خلاصة القول إن تناول منطقة تافيلالت عموما ومدينة سجلماسة على وجه الخصوص من وجهة نظر المسألة الديموغرافية تحاول رصد العناصر السكانية التي عرفها المجتمع السجلماسي، تطلبت القيام بمسح وبحث عن النصوص التاريخية القليلة والتي ساعدتنا إلى حد ما في تذليل الصعاب والعقبات، ذلك أن قلة الاشارات في المصادر التاريخية جعلتنا نستعين بكتب الرحلات والجغرافيا وغيرها فضلا عن الدراسات التي تناولت بعض القضايا المرتبطة بعناصر السكان، وقد تبين من خلال كل ذلك أن منطقة الجنوب الشرقي احتضنت قبائل أمازيغية زناتية وصنهاجية ومصمودية والعناصر الافريقية السودانية والحراطين، واستقبلت هجرات بشرية عربية معقلية، فضلا عن فئة اليهود مما خلق فسيفساء اجتماعية اثنية تفاعلت فيما بينها داخل مدينة سجلماسة وخارجها تحت حكم الدول الوسيطية بالمغرب الأقصى، بل واستمر حتى بعد خرابها، حيث ستنتشر هذه العناصر في القصور وتستمر في أدوارها وإن كانت الزعامة والأهمية والسلطة تنتقل من عنصر اثني إلى أخر حسب قوة العصبية، ومع ذلك فالمنطقة عموما حافظت على تنوعها السكاني في الماضي وفي التاريخ الراهن وهي تمثل خزانا تراثيا وتاريخيا لمن يحاول استحضار تاريخ منطقة سجلماسة في مرحلة مجدها وازدهارها وخرابها.

الهوامش:

1- أحمد عزاوي- مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي- عصر الانقسام السياسي، مطبعة ربا نيت- الرباط- 2009- ط2- ج1-ص10.

2- ذكر أحمد عزاوي "علم السلالات أو الإثنولوجية يهتم بالسلالات البشرية من حيث أصولها وتحركاتها واختلاطها..". انظر مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي- ص10.

3- نستعمل كلمة بربر لأن اغلب المصادر تذكر هذا المصطلح، وقد استعمل الباحث أحمد عزاوي كلمة البربر، وهي في رأيه "لا تحمل أي مدلول قدحي كما قد يظن البعض". م س- ص 10.

4- إبراهيم القادري بوتشيش- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين- دار الطليعة بيروت - 1998- ط1- ص10.

5- يصرح أحمد عزاوي بأن "أهم الموجات البشرية القادمة من الشرق والتي أمكن للباحثين التعرف على مخلفاتها موجة حدثت منذ حوالي 10.000 سنة قبل الميلاد، والموجة الثانية الكبرى حدثت حوالي 5000 قبل الميلاد من الشرق عبر الجنوب عندما بدأ الجفاف يظهر فيما أصبح بعد صحراء". مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي- ص11.

6- إبراهيم القادري بوتشيش- مباحث- ص8.

7- محمد الطالبي- الانهيار الديموغرافي في بلاد المغرب من القرن 11م إلى القرن 15- تعريب محمد الغرايب- (ص 181-193)- مجلة كنانيش - 2002- العدد 4 - ص 184.

8- ابن حوقل النصيبي- أبو القاسم- كتاب صورة الأرض- ط1979- من الصفحة 97 إلى الصفحة 103.

9- عبد الله استيتيتو- دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر- نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير- دار أبي رقراق للطباعة والنشر- الرباط- 2013 -ط1- ص 51 .

10- حسن حافظي- سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- مطبعة فضالة المحمدية- 1418هـ/1997- ص137.

11- المرجع نفسه- ص139.

12- يذكر الباحث إبراهيم القادري بوتشيش: "أنه وقع اختلاف بين المؤرخين والنسابة حول الأصل الذي اشتقت منه كلمة البربر". للمزيد من التفاصيل انظر: مباحث- هامش الصفحة 9.

13- أحمد عزاوي- مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي- ص12.

14- عبد الرحمان بن خلدون- تاريخ بن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- دار الفكر- بيروت-1981-1988- ط1-2 - الجزء6 - ص117.

15- المصدر نفسه- ص 119.

16- نفسه- ج6 ص117.

17- نفسه- ج6 ص202.

18- ابن أبي زرع- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المنصور للطباعة- الرباط- 1999- ط2- صص 152-153.

19- المصدر نفسه- والصفحة.

20- المصدر نفسه- والصفحة.

21- حسن حافظي- سجلماسة وإقليمها- ص139.

22- العبر- ج 6- ص275/مباحث- ص28.

23-السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- دار الكتاب العربي- الدار البيضاء- 1955- ج1-ص72.

24- مباحث- ص24.

25- ابن أبي زرع الفاسي- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية- دار المنصور- الرباط- 1972- ص.17

26- المصدر نفسه والصفحة.

27- مباحث- ص24.

28- سعيد واحيحي- سجلماسة – تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور 796هـ/ 1393م إلى أواخر القرن 11 هـ/17م (دراسة تاريخية- اجتماعية- ثقافية)- أطروحة دكتوراه مرقونة- كلية الآداب- ظهر المهراز- جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس- تحت إشراف ذ مولاي هاشم العلوي القاسمي- 2005-2006- ص21.

29- المقدسي - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم- ص231، نقلا عن سعيد واحيحي- سجلماسة- تافيلالت- ص22.

30- لحسن تاوشيخت- عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008- ط1- ج1 ص58..

31- ابن أبي زرع الفاسي- الأنيس المطرب- ط1973- ص281.

32- ابن خلدون- العبر- دار الكتب العلمية- بيروت- 1992- ج7- ص73-74.

33- محمد المغراوي- الموحدون وأزمات المجتمع- جذور للنشر- الرباط- ط1 -2006- ص92.

34- العبر- ط1988- ج6 - ص283.

35- مباحث- ص37.

36- العبر- ج6- ص283.

37- المصدر نفسه والصفحة.

38- لحسن تاوشيخت- عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية- ج1 -ص.60

39- نفسه- ص 92.

40- ابن أبي زرع- روض القرطاس- 1999- ط2- ص47/مباحث- ص37/الموحدون وأزمات المجتمع- ص 92.

41- ابن أبي زرع -روض القرطاس- ص47.

42- مباحث- ص37.

43- محمد زروق- الهجرة الأندلسية إلى المغرب ص17- 30- مجلة دراسات أندلسية - المطبعة المغاربية للطباعة والنشر تونس – 1996- العدد 16- ص17.

44- ابن أبي زرع الفاسي- روض القرطاس- ص47/الموحدون وأزمات المجتمع- ص92/محمد زروق- الهجرة الأندلسية- ص17.

45- نفسه- ص17.

46- ابن أبي زرع الفاسي- روض القرطاس- ص47.
47- لحسن تاوشيخت- عمران سجلماسة- ج1 ص44.
48- ابن حيان- المقتبس من أنباء أهل الأندلس- المعهد العربي- الإسباني- مدريد- ط 1979- ج5- ص338.
49- ابن أبي زرع الفاسي- روض القرطاس- 1999- ط2- ص45.
50- بوتشيش- مباحث- ص38.
51- محمد زروق- الهجرة الأندلسية إلى المغرب- ص19.
52- نفسه- ص19.
53- إسماعيل ابن الأحمر- بيوتات فاس الكبرى- دار المنصور للطباعة- الرباط- ط 1972- انظر ص8- 9-45-22-26-36-39.
54- بوتشيش- مباحث- ص38.
55- محمد المغراوي- الموحدون وأزمات المجتمع- ص93.
56- ابن خلدون- العبر- 1988- ط2- ج6- ص77.
57- أحمد البوزيدي- التاريخ الإجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17- مطلع القرن20)- دراسة في الحياة السياسية والإجتماعية والإقتصادية من خلال الوثائق المحلية- آفاق متوسطية- الدرا البيضاء- 1994- ص.117
58- نفسه - ص117.
59- ابن خلدون- العبر- 1988- ط2- الجزء6- ص.78
60- حسن حافظي- سجلماسة واقليمها- ص152.
61- المرجع نفسه- صص 160-161.
62- علي ابن أبي زرع - الذخيرة السنية- ص97.
63- سعيد واحيحي- ص28.
64- الحسن الوزان- وصف إفريقيا- ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي، بيروت -1983- ط2- ج2 ص121.
65- سعيد واحيحي- ص 177.
66-" الشرفاء أو الأشراف، ويمكن التمييز بينهم وبين الشرفاء الأدارسة ويتزعمهم المزوار الخاص بهم ويطلق عليهم في غالب الأحيان المرابطين الذين يرجع إليهم الفضل في تأسيس الزوايا بتافيلالت، ويسمى شيخ الزاوية المقدم، ثم الشرفاء السعديون وهم من أبناء عمومة العلويين، وعددهم قليل جدا، وأخيرا الشرفاء العلويون، ويدعة ممثلهم بالمزوار أو النقيب". انظر لحسن تاوشيخت- عمران سجلماسة- ج1 ص61.
67- العربي مزين- تافيلالت مهد الدولة العلوية مذكرات من التراث المغربي- ج2- ص 18- نقلا عن عبد الله استيتيتو- دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والخزن والمستعمر..- ص53.
68- أبو العباس الفضيلي- الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية- طبعة فاس- 1314هـ - ص 53. نقلا عن عبد الله استيتيتو- دور تافيلالت في تنظيم العلاقات..- ص.53
69- عبد الله استيتيتو- دور تافيلالت في تنظيم العلاقات..- ص.53
70- ابن أبي زرع- روض القرطاس- 1999- ط2- ص47.
71- إبراهيم القادري بوتشيش- الإسلام السري في المغرب العربي- سينا للنشر- القاهرة- 1995- ط1- ص.237
72- محمود اسماعيل- الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري- دار الثقافة للتوزيع والنشر الدار البيضاء- 1985- ط2- ص 50. انظر البكري - المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب- باريس- 1911- ص .149
73- حسن حافظي علوي- سجلماسة وإقليمها- ص133.
74- نفسه- ص 133.
75- الإدريسي- وصف إفريقيا الشمالية- ص33/بوتشيش- الإسلام السري- ص.237
76- ابن القطان- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان- تحقيق محمود علي مكي- دار الغرب الإسلامي- 1990-ط1- ص158.
77- لحسن تاوشيخت- عمران سجلماسة- ص.64
78- حسن حافظي- سجلماسة وإقليمها- ص.133
79- إدريس أزواوي- دراسة تاريخية واجتماعية للحراطين بواحة تافيلالت خلال العصر الحديث- بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث- ماستر شمال إفريقيا وجنوب الصحراء- مرقونة بكلية الاداب- القنيطرة-2017-2018- ص74.

80- ماك كول- الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة- تعريب محمد الحمداوي- دار الثقافة -الدار البيضاء- ط1- 1395هـ- صص19-20.

81- لحسن تاوشيخت- عمران سجلماسة- ص.65

82- عبد الله استيتيتو- دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والخزن والمستعمر- انظر ص53 وما بعدها.

83- حسن حافظي- سجلماسة وإقليمها- ص144.

84- إبراهيم القادري بوتشيش- مباحث- صص94- .255

85- محمد المغراوي- الموحدون وأزمات المجتمع الموحدي- صص112-.113

86- مؤلف مجهول(ق6هـ)- الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب- نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد- دار النشر المغربية- البيضاء- 1985- ص202.

87- أبو عبيد الله البكري- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب- وهو جزء من كتاب المسالك والممالك- مطبعة المثنى- بغداد- د.ت- ص 149.

88- الحسن الوزان- وصف إفريقيا- ج1- ص 284./محمد المغراوي- م. س- ص113.

89- محمد المغراوي- الموحدون وأزمات المجتمع- ص113.

90- كربخال مارمول- إفريقيا- ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر وأحمد توفيق وأحمد بن جلون- مكتبة المعارف، الرباط -1984- ج2- ص231.

91- الشريف الإدريسي- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- 1964- صص 69-.89

92- البكري- م س- ص149/محمد المغراوي- الموحدون وأزمات المجتمع- ص113.

93- ياقوت الحموي- معجم البلدان- بيروت ط1979- ج2- ص451/محمد المغراوي، الموحدون..- ص.113

94- الاستبصار- ص201.

95-المصدر نفسه والصفحة.

96- ابن عذاري- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- تحقيق جماعة من الأساتذة- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1985- صص228-229.

97- الحسن الوزان- وصف إفريقيا- دار الغرب الإسلامي- ط2- بيروت- 1983- ج1- ص99.

98- المصدر نفسه- صص 176-177.

99- المصدر نفسه- ص 147.

100- المصدر نفسه- ص 117.

101- حاييم الزعفراني- يهود الأندلس والمغرب- ترجمة أحمد شحلان- مطبعة النجاح الجديدة- ط1- 2000- ج1- ص304.

102- المرجع نفسه والصفحة .

103- المرجع نفسه والصفحة.

104- حسن حافظي- سجلماسة- ص145.

105- المرجع نفسه والصفحة.

106- عبد الله استيتيتو- م.س- ص77.

107- حسن حافظي- سجلماسة- ص101.

108- الحسن الوزان- وصف افريقيا- ج2- ص 126.

109- ابن فضل الله العمري- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار- من الباب 8 إلى الباب 14- تحقيق مصطفى أبو ضيف- مطبعة النجاح الجديدة البيضاء- 1988م- ط1- صص123-124.

110- حميد اجميلي- المسألة الديموغرافية بالمغرب الأقصى مؤشرات إحصائية حول الاقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط ق 6-8 هـ- منشورات الزمن- سلسلة شرفات- الرباط- أكتوبر2018- رقم 97- ص127.